

الإسلامولوجيا أو اللسانيات التطبيقية عند محمد أركون

- توصيف ونقد -

د. بلوافي حليلة

- المركز الجامعي لعين تموشنت

تمهيد :

ليس هناك من شك في أن المعرفة هي وليدة جملة الأفكار التي اتخذت منحى عقليا وغدت تشكل مرجعا فكريا يتسابق والمنهج العلمي الذي يسم العصر، ولذا شهدنا انبثاق الاستشراق في عصر ما قبل النهضة العربية كحصيلة للنزعة الغربية لمعرفة الآخر العربي الإسلامي لأغراض معينة وهو استشراق يتخذ المرجعية الفلسفية الغربية كإطار للمساءلة والبحث في التراث العربي الإسلامي: فإذا كانت الفلسفة المادية تعلي من شأن المادة على الفكر وبأسبقيتها، فإن الفلسفة العقلية الوجودية تقدم الفكر على المادة، وهو ما ستتلور عليه الفلسفة الأمريكية التي تميزت عن فلسفة أوربا بأنها فلسفة اعتمدت على ربط الفكر بالواقع، فلا أهمية للمعرفة إلا ما كان منها فاعلا في الواقع، مهيمنا عليه مخضعا له وهو ما تمخض عن صنف من الفلسفة هي "الفلسفة الذرائعية".

لقد وضع المفكر محمد أركون "حركة الاستشراق" على محك النقد، ولم يقلل من دورها في بعث التراث العربي الإسلامي، والتعريف بأعلامه إلا أنها حركة لم تحرك فعالية البحث في هذا التراث لأنها اكتفت بنقله وشرحه وترجمته ولكن لم تبحث فيه عن

آليات تطوره وازدهاره ، وإثماره للتحضر والرقي الفكري والمادي ولذا أطلق عليه مصطلح الاستشراق الكلاسيكي بما ينبئ على وجود أو ميلاد استشراق جديد ، وهو ما أطلق عليه مصطلح " الاسلامولوجيا " أو ما ترجم إلى " الإسلاميات التطبيقية " .

الاسلاميات التطبيقية تحاول أن تستثمر معطيات العلوم الإنسانية الحديثة من أجل قراءة واعية للتراث الإسلامي والبحث فيه عن آليات انحساره وانغلاقه بعد أن كان مفعما بالحركية البناءة ، وما شأن " النص " الذي أضحى محور التفكير والاشتغال بل تأسست عليه نصوص أخرى صارت تزاحمه وتنافحه بل وتجاوزه ، إذ الممارسات الفردية والجماعية في الزمن الأول أضحت هي الأخرى تمثل مرجع المعنى في ذلك النص ، والفهم الأحادي المنفرد الذي أسس اتجاهها فكريا أقصى اتجاهات أخر ظلت منحسرة في بيئات منعزلة لأن ثمة سندا سياسيا قد مكنها من أن تتربع على سلطة الفكر والاجتهاد .

1- منهج محمد أركون في الاسلامولوجيا :

إن منهج أركون في تأسيسه للإسلاميات التطبيقية ينطلق من توصيف وإحصاء للفكر التراثي الإسلامي وتمييز مذاهبه ونحله والتمركز داخله لتفكيك بناه والوقوف على سقطاته على مستوى المنهج والمساءلة والفهم ثم تبيان هشاشة الهوامش التي تأسست على النص إن على مستوى الفكر أو على مستوى الممارسات وضرورة بناء استراتيجية مغايرة لبعث دينامية النص كسابق عهدها ومستجيبة لمعطيات العصر وقد أكد محمد أركون على منهجيته تلك منذ أن بدأ

مشروعه سنة 1973 ، وفي مجال قراءة أعمال المؤرخ كلود كوهين وقد حصرها في ثلاث مراحل : " اختراق " ، " إزاحة " ، " تجاوز " [1]. كما أن مشروع محمد أركون يتأسس على نقد العقل العربي الاسلامي والوقوف على الاستيمية التي انبنى عليها هذا العقل ومحاولة تجاوز العثرات التي اعترضته يقول في ذلك مصطفى كحل في هذا السياق يندرج مشروع محمد أركون فهو صاحب برنامج نقدي شامل ، يدرس شروط صلاحية كل المعارف التي أنتجها العقل الإسلامي ، و هو مشروع ينخرط ابستمولوجيا في العمق ، كما أنه مشروع ضخم ، لا يستطيع فرد أن ينجزه لوحده بل إن كل خط من خطوط المشروع يحتاج إلى مؤسسات بحث علمية ، و فريق كبير من المؤرخين ، و علماء النفس ، و علماء الاجتماع ، و اللسانيين و الأنثربولوجيين والاقتصاد. الخ [2] كما أن محمد أركون يريد أن يوقع منهجه في إرساء دراسة جديدة للفكر الاسلامي ، في التراث العلمي الذي سلك العلماء فيه مسلك التعددية الإجرائية في استنطاق بنية النص القرآني ويستشهد في ذلك بما وضعه فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير ، حتى قال عنه المفكرون تكاد تجد فيه كل شيء إلا التفسير، ففيه البلاغة والنحو والتاريخ والمعجم والفلسفة والأدب ... يقول محمد أركون في منهج الرازي التفسيري : " يلجأ إلى قراءات عديدة و لكنه يصفها الواحدة إلى جانب الأخرى دون أن يمارس مراجعة نقدية لكل منها . ، نجد عنده القراءة المعجمية اللفظية و القواعدية و نجد القراءة الاسقاطية الوجودية الممارسة بواسطة القصص . و نجد القراءة القانونية التشريعية و القراءة الفلسفية و العلمية (بمعنى أنه كان يلجأ إلى

المعارف العلمية المتوفرة في عصره .) كما نجد القراءة الشيولوجية والقراءة الأدبية (الإعجاز والبلاغة). [3] كما يندرج مشروع أركون في "الاسلاميات التطبيقية" إلى فتح ورشات بحث تجمع إليها مختلف التخصصات الإنسانية من لسانيات وسميائيات وتاريخ وانثروبولوجيا وفيلولوجيا ومقارنة الأديان وما إلى ذلك مما أنتجه الفكر الغربي المعاصر، يشرح ذلك بقوله " وهكذا نطبق التحليل الألسني و التحليل السيميائي ، والتحليل الدلالي ، والتحليل التاريخي، والتحليل الاجتماعي أو السوسولوجي ، والتحليل الأنثروبولوجي. والتحليل الفلسفي ، وعلى هذا النحو نحرر المجال أو نفسح المجال لولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية ولكن من دون أن نعزلها أبدا عن الظواهر الأخرى المشكلة للواقع الاجتماعي التاريخي الكلي ". [4]

ولذلك ينزع أركون إلى الفكر التنظيري أكثر من نزوعه إلى المجال التطبيقي ، لكون المشروع متعددًا وذا اتجاهات مختلفة يقول علي حرب وهو يصف منهج أركون : " يقف موقف الداعية إلى فتح الورشات الجديدة للبحث ، أو إلى تقديم إمكانيات جديدة للتطور والتغير أو إلى تجديد الفكر الإسلامي من الأساس . إنه لا يميل من القول بأن هدفه هو شق الطريق و اقتراح برامج العمل " [5] إلا أنه يمكن أن نلاحظ في مسار أركون التفكيكي أنه لا يمارس نقده على الهامش بقدر ما يتجاسر على النص ذاته ذلك لافتقاده إلى تحيين المناهج لتلائم النص خاصة إذا علمنا أن أركون يؤسس معارفه على " الابستيمولوجيا " وهي جملة الأنظمة الضمنية الفكرية المنتجة للمعرفة ، إلا أنه لا يحترم خصوصية النص العربي الذي ينتمي إلى

ابستمولوجيا مختلفة عن تلك التي أنتجت المعرفة الغربية، بل نراه يطبق مناهجها بحرفية ويسترشد بإجراءاتها التطبيقية للوقوف على نتائج مستخلصة قليا في ذهنه لكونه منقادا بالمعرفة الاستشراقية الكلاسيكية وصرامتها في إتباع المنهج الفيلولوجي كما لقنه اياه "ريجيس بلاشير" من الباحثين الذين يحتفون كثيرا بالتنظير لمناهجهم، وهو ما أدى إلى نوع من الازدواج في مستوى الموضوع أي أن المنهج أصبح موضوعا ثانيا إلى جانب كونه أداة و هذا يعني أن خطاب نقد العقل الإسلامي يشقه خطاب آخر لا يقل عنه قيمة بل لا يكاد ينفصل عنه هو الخطاب المنهجي. "[6] وقد سئل أركون عن كثرة الاحتفاء بالمنهج في دراساته الإسلامية ولم يجد من تبرير لذلك إلا التأكيد على أن الجانب التنظيري للفكر العربي المعاصر يجب أن يحظى بالاهتمام الأكبر من قبل العلماء لكون أن الخلل الأعظم واقع في الجانب المنهجي الذي عرف انحرافا معرفيا خطيرا في أواخر القرن السادس الهجري ترتب عنه التقهقر الذي ساد مختلف المناحي الفكرية والثقافية .

2- الأنسنة عند محمد أركون :

إن فكرة " المقدس " كما يقول أركون غابت فكرة " الإنسان " وهو ما أضحى ينزع إليه أركون في ضرورة أن يعتلي الإنسان قيادة نفسه ولا يترك ذلك لأي معرفة دوغمائية سابقة أن تقوده، كما كان شأن المذهب الأرثوذكسي الذي ألغى سلطة أي كان إلا سلطة " الكنيسة " التي احتكرت النص وفهم النص، وهو ما بات يعرف في حقل الاسلاميات التطبيقية بـ " الأنسة " ويمحور أركون المسألة

الدينية بين الإنسان والنص ، أيهما أسبق من الآخر : هل الإنسان أسبق من النص أم النص أسبق من الإنسان ، وهو ما يمكن أن نؤسسه على مسألة فلسفية تتعلق بجذلية النص والعقل ، يقول أركون مبسطا مفهوم الأنسنة مشيرا : " إلى تلك الأبعاد الغائبة بعد ازدهارها في عهد الأدب و الأدباء ثم لكي أدعو بالحاح إلى ضرورة إحياء الموقف الفلسفي في الفكر العربي خاصة والفكر الإسلامي عامة و كنت أعتقد و لا أزال بأنه لا سبيل إلى الاعتناء بمصير الإنسان اعتناء شاملا ، نقديا ، منيرا ، بدون التساؤل الفلسفي عن آفاق المعنى التي يقترحها العقل ويدافع عنها . "[7] ذلك لأن مسألة " المعنى " تشكل أساس التدافع الفكري الذي تتصارع من خلاله مختلف الأنظمة العقائدية، والتي تدعي احتكاره أو أحقيتها به ، لكونها تملك مصادره ، أو أنه المعنى الأعلى الذي لا يمكن أن يعتره خطأ أو يُطعن في مقصديته ، وتخفي مع هذا الادعاء أن مناهج فهم المعنى هي مناهج بشرية تتحكم في تصرفها شروط موضوعية تعود إلى طبيعة المعرفة السائدة وإلى البعد التاريخاني لتلك العدة اللغوية وأساليبيها في التدليل على المعنى . يقول أركون : " إن مفهوم المعنى يطرح مشكلة بالفعل . فالتنافس عليه عام و شامل. كل الناس يريدون المعنى ويدعون له . وكل الفئات الاجتماعية الباحثة عن هويتها تدعيه . وكذلك كل المذاهب الفكرية تتنافس من أجل اكتشاف المعنى الحقيقي وفرضه أقصد المعنى المشتق بشكل صحيح من المصدر التشريعي الأعلى وبالتالي المؤدي إلى المعنى الكلي والأخير . "

[8] ويمكن أركون لمفهوم " الأنسنة " فإنه يبحث في المقدس عن الجانب الذي له علاقة بالتصريف البشري للمعنى ، وذلك ليجد

مشروعية علمية للمنهج الذي تبناه من أجل قراءة معاصرة وفاعلة للنص الديني بأدوات لغوية ومناهج تاريخية ، مسترشداً بعوامل ازدهار التفاعل مع النص في العصور النيرة من تاريخ الحضارة الإسلامية ولم يحصل ذلك إلا باحلال " العقل " المكانة التي يستحقها، إذ أضحى " الإنسان " لا ينفعل بالنص وإنما يتفاعل مع النص ليحلّه في بيئته ويقراه بمنظور المعرفة السائدة في عصره يقول أركون في ذلك : " القرآن نفسه يلح على وجود كلام إلهي، أزلي، لانهائي محفوظ في أم الكتاب وعلى وجود وحي منزل على الأرض بصفته الجزء المتجلي والمرئي، و الممكن التعبير عنه لغويًا والممكن قراءته وهو جزء من كلام الله اللانهائي بصفته إحدى صفات الله) [9] ولكن هاجس أركون في البحث عن الناسوتي في اللاهوتي هو مسعى خطير ، لأن أساسيات العقيدة الإسلامية أن القرآن كلام الله تعالى ، ولا ينازعه في ذلك أحد ، نعم أساليب القرآن هي أساليب لغوية كانت سائدة في العصر وأنه لكي يحصل فهم للقرآن وجب العودة إلى تلك الأساليب مدارس وتعلما ، ولكن النص القرآني مبدع في لغته لا عهد للناس - آنذاك - بمثل تلك الأساليب ، أعجز فطاحل العرب في فن القول والبلاغة ، بل وأخرس الشعراء حتى أن أحدهم توقف عن قرض الشعر مذ أن تناهت إلى أذنيه آيات القرآن الكريم، يقول علي حرب ناقدًا : ﴿معنى ذلك أن أركون يوظف تفكيكاته ضد المنطق اللاهوتي القرآني، ولا أقول ضد القرآن بالتحديد، ذلك أن النص، أي نص، هو في النهاية متعدد الخطوط والمساحات والطبقات. وهذا ينطبق

على النص القرآني بامتياز. ففيه المتعالي والتاريخي، واللاهوت والناسوت، والقدسي والديني. من هنا فإن كلام أركون على الحجب الذي يمارسه النص الثاني على النص الأول، هو كلام مخادع مراوغ. ذلك أن هاجس أركون الأصلي هو تفكيك النص القرآني لتعرية آلياته في الحجب والتحوير والتحويل... هاجسه هو «خرق الممنوعات وانتهاك المحرمات» التي سادت فيما مضى وتسود اليوم، التي «أقصت كل الأسئلة التي كانت قد طرحت في المرحلة الأولية والبدائية للإسلام، ثم سكرت وأغلق عليها» [10] فالادعاء بأن النص الثاني - نص التفسير - قد جنى على النص الأول - نص القرآن - فيه كثير من التجني على فكر أسلافنا الذين تعاملوا مع النص القرآني بحسب متطلبات عصرهم والأدوات المتاحة بينهم حتى أن نصوصهم التفسيرية تملأ الآن فراغا رهيبا لعدم تمكن علماء اليوم من تجاوز تلك النصوص التي توصف بموسوعية المعرفة فيها . إن محمد أركون المفكر الديني المعاصر ، في اعتقادنا ، قد ضللته المناهج الغربية التي وإن كان بعضها يوصف بالموضوعية في مناهجه ومقولاته كاللسانيات مثلا ، فإن الأغلبية من تلك المناهج لها مرجعيتها الفلسفية والفكرية ولا يمكن بحال من الأحوال تطبيق مفاهيمها في فهم النص القرآني كالمناهج التاريخي والمنهج السوسولوجي والمنهج الأنثروبولوجي وغيرها من تلك المناهج التي دافع عنها محمد أركون وعن نجاحتها في تفكيك بنية النص القرآني ، وقد تسلح محمد أركون بعدة نظيرية هائلة مع اطلاع على موروثنا المعرفي في التفسير والبلاغة والنحو والفلسفة والتاريخ، وهو

أمر يدعو إلى ضرورة الحيلة في الأخذ بكل تنظيراته في حقل ما سماه بالاسلاميات التطبيقية يقول علي حرب واقفا على نوايا محمد أركون في تبشيره بالمنهج التفكيكي: " لا أريد أن أضع أركون في خانة الماديين والواقعيين والعلمويين الذين يشككون بمصداقية الخطاب النبوي أو ينقضون ظاهرة الوحي الإلهي أمثال صادق جلال العظم ونصر حامد أبو زيد. لا ريب أن أركون هو دهري دنيوي في مفهومه للوحي وفي منهج تحليله للخطاب النبوي. ولا حاجة إلى تكرار القول في هذا الخصوص. ومع ذلك فإن أركون يختلف تمام الاختلاف عن مواقف الذين يتعاملون مع النص القرآني بطريقة تبسيطية أحادية تقوم على نفيه واستبعاده. فإن هؤلاء يرشقون القلعة القرآنية الحصينة بحجارة تترد عليهم. أما أركون فإنه يحاول، متسلحاً بمنهجيته ذات القدرة الهائلة على الحفر والسبر، أن يلج إلى القلعة لكي يقوم بتلغيمها أو تفكيكها من الداخل. فهو يملك مفاتيح معرفية تتيح له أن يعرف خارطة القلعة وأن يكشف عن مخابئها السرية. ولهذا فإن محاولته هي الأكثر خطورة وأهمية، أعني بذلك أنها الأكثر فاعلية ومردودية على الصعيد المعرفي، هذا ما يرمي إليه النقد التفكيكي." [11]

إن الاسلامولوجيا عند أركون لا تريد العودة إلى ممارسات الفكر العربي الإسلامي في التاريخ، ولا أن تسترشد به بقدر ما تريد إزاحته وتجاوزه، لأنه يعتقد أن الرجوع إلى التراث الفكري العربي قد كان له الأثر السيئ على مرودية الفكر العربي المعاصر في محاولته بعث نهضة فكرية جديدة تطرح مساءلة أخرى للنص القرآني

والنصوص اللاحقة به تفسيراً وتأويلاً ونصوص مصادر التشريع الأخرى. وهو ما تجلّى في الممارسات التي تطبع الشأن العام العربي والإسلامي والتي ترجع أساساً إلى خلل في التصور العائد إلى فاعلية " النص " في حياة الناس .

الهوامش :

- 1- أنظر : محمد أركون، "إختراق، إزاحة، تجاوز"، مجلة "أرابيكا" (Arabica)، مجلة الدراسات العربية الإسلامية، ملف "كلود كاهين : قراءات نقدية"، عدد 43، 1996، ص. 28-70.
- 2- مصطفى كحل : الأنسنة والتأويل في فكر محمد لأركون - المقدمة - رسالة دكتوراه جامعة منتوري قسنطينة كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - قسم الفلسفة 2007-2008.
- 3- محمد أركون : الفكر الإسلامي: قراءة علمية. ص 274 - ترجمة هاشم صالح. مركز الإنماء القومي. بيروت. ط2- 1996.
- 4- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 70 ترجمة هاشم صالح - دار الطليعة - بيروت ط 1- 2001 .
- 5- على حرب : الممنوع والممتنع ،، نقد الذات المفكرة ، ط 02، 2000- بيروت ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي
- 6- محمد الفجاري : نقد العقل الاسلامي عند محمد أركون ص 118- دار الطليعة - ط 1 - 2005 بيروت .
- 7- محمد أركون : معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية ص 13 ترجمة هاشم صالح - دار الساقى - بيروت - ط 1- 2001
- 8- محمد أركون : الإسلام ، أوروبا ، الغرب ، رهانات الإسلام و إرادات الإسلام - ص 24 ترجمة هاشم صالح - دار الساقى - بيروت - ط 2- 2001
- 9- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص . 22

10- علي حرب، النقد القرآني .. نقد لأفكار أركون، قراءة، ص 31 موقع:
info@balagh.com
11- المرجع السابق ص 35

ملحق " مؤلفات محمد أركون :

- الفكر العربي. ترجمة عادل العوا. دار عويدات. بيروت. 1979
- الاسلام بين أمس والغد. ترجمة علي المقلد. دار الفارابي. بيروت. 1985
- تاريخية الفكر العربي الاسلامي. ترجمة هاشم صالح. مركز الانماء القومي. بيروت. 1986
- الفكر الاسلامي: قراءة علمية. ترجمة هاشم صالح. مركز الانماء القومي. بيروت. 1987
- الاسلام: الأخلاق والسياسة. ترجمة هاشم صالح. منشورات اليونيسكو بالتعاون مع مركز الانماء القومي. بيروت. 1988
- الاسلام: نقد واجتهاد. ترجمة هاشم صالح. دار الساقى. بيروت. 1990
- من الاجتهاد الى نقد العقل الاسلامي. ترجمة هاشم صالح. دار الساقى. بيروت. 1991
- من فيصل التفرقة الى فصل المقال. أين هو الفكر الاسلامي المعاصر؟ ترجمة هاشم صالح. دار الساقى. بيروت. 1993
- الاسلام، أوروبا، الغرب. رهانات المعنى وارادات الهيمنة. ترجمة هاشم صالح. دار الساقى. بيروت. 1995
- نزعة الأنسنة في الفكر العربي. جيل مسكويه والتوحيدى. ترجمة هاشم صالح. بيروت. 1996
- العلمنة والدين: الاسلام، المسيحية، الغرب. ترجمة هاشم صالح. منشورات دار الساقى. بيروت. 1996
- نافذة على الاسلام. ترجمة صياح الجهيم، دار عطية للنشر. 1996
- قضايا في نقد العقل الديني. كيف نفهم الاسلام اليوم؟ ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة. بيروت. 1998

- الفكر الأصولي واستحالة التأصيل. نحو تاريخ آخر للفكر الاسلامي. ترجمة هاشم صالح. دار الساقى. بيروت. 1999
- معارك من أجل الأنسنة في السياقات الاسلامية. ترجمة هاشم صالح. دار الساقى. بيروت. 2001
- القرآن من التفسير الموروث الى تحليل الخطاب الدينى. ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة. بيروت. 2001
- من منهاتن الى بغداد. ما وراء الخير والشر. دار الفارابي. بيروت. 2008
- نحو نقد العقل الاسلامي. ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة. بيروت. 2009
- الهوامل والشوامل حول الاسلام المعاصر. ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة. بيروت. 2010
- الأنسنة والاسلام. ترجمة محمود العزب. دار الطليعة. بيروت. 2010
- نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية. ترجمة هاشم صالح. دار الساقى. بيروت. 2010
- تحرير الوعي الاسلامي. نحو الخروج من السياجات الدوغمائية المغلقة. ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة. بيروت.